بسم الله الرحمن الرحيم

صلة الرحـــم
فى مرآة الشعراء العرب
« نماذج وتعليقات فنية »

بقلم
أ.د/ عبد الجواد محمد المحص

صلة الرحـــم
فى مرآة الشعراء العرب

(نماذج وتعليقات فنية)

لاشك أن صلة الرحم من دعائم البناء السليم للمجتمع ، فإذا انعدمت تلك الرابطة بين ذوى القربى تفرق شملهم ، وتشتت جمعهم ، وسهل على الأعداء غزوهم والنيل من سيادتهم . ولاشك أن العز لا يتحقق للإنسان إلا بالتعاون والائتلاف والاتحاد والمحبة مع ذوى قرباه - حتى يرهبه الآخرون ، ويبتعد عن حماه الطامعون . لذلك فهو مطالب بتقديس صلة الرحم ، والتغاضى عن هفوات الأقارب ، والتسامح عن إساءة العشيرة ، والتجاوز عن هفوات أهله ، حفاظاً على صلة الرحم ، وأملاً فى خير أهله .

لقد كان العرب فى جاهليتهم يقدسون هذا الخلق ، ويتمدحون به ، ويندون بقطع الأرحام ، على النحو الذى سنرى أمثلة له بعد قليل . وجاء الإسلام فحث على تلك الرابطة بعد أن هذب فلسفتها وحد من غلوائها ، فقال الله تعالى : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) . وقال أيضاً - : (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) ، وقال الرسول - صلى الله ﷺ : - « لايدخل الجنة قاطع رحم » ، وجاء فى الحديث القدسى : « أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » .

ومن هنا فإن المتتبع للشعر العربى يظفر بقصائد عديدة تدور حول التمدح بهذا الخلق الكريم ، وتقديس تلك الرابطة . وكلها قصائد تبدو وكأنها غناء عذب وأناشيد حلوة يترنم بها الشعراء . وإذا كان من الصعب الإحاطة بها جميعاً فى هذا

البحث فإننى سأتخير منها ما يفصح عن اعتزاز الشاعر العربى بهذا الخلق ، ويغنى عن ذكر غيره .

فهذا هو الأعشى ميمون بن قيس ـ مثلاً ـ يفخر بتغاضيه عن ضغائن المولى ـ والمولى هو القريب من العصبة كالعم وابن العم ونحوهما ـ فيقول :

وإنى لتــراك الضــغـينة قــد أرى ∴ قذاها من المولى فلا أستثيرها (١)

ويقرر ـ من قصيدة أخرى ـ أنه لن يكون كالمقراض يقطع جلود قومه وينهش أعراضهم ويظهر سيئاتهم ، فيقول :

فــإن أنأْ عنكم لا أُصــافى عــدوكم ∴ ولا أعطه إلا جــدالا ومـــحــــدبا
وإنْ أدن منكم لا أكنْ ذا نميــمـــة ∴ يرى بينكم منها الأجالد مثقبا (٢)

ويخاطب أبناء عمومته ـ فى قصيدة ثالثة ـ بالاعتدال وعدم إثارة الفتن بين الأهل ، ويطالبهم أن يعاملوه كما يعاملهم فيحافظوا على العهد ، ويقلعوا عن الشر والظلم والعدوان ، لأن ذلك يسبب الإساءة للطرفين ، ويشعل نار الحدب بين الأقارب . وتراه فى ثنايا ذلك يفخر بمحافظته على نساء أبناء عمومته ويقرر أن إثارة الحرب بين أبناء العم ظلم مبين ، فيقول :

بنى عَمِّنا لا تبعثــوا الحــرب بيننا ∴ كردِّ رجيع الرفْضِ ، وارموا إلى السلمِ
وكــونوا كــما كنا نكون ، وحــافظوا ∴ علينا كــمــا كنا نحــافظ عن رهم
نســاء مـــوالينا البــواكى ، وأنتمْ ∴ مـــددتم لأيدينا خـــلاف بنى غنم
فلا تكسروا أرماحكم فى صدوركم ∴ فتـغـشمكم إن الرماح من الغشم (٣)

والنماذج السالفة من شعر الأعشى الكبير تدل على أنه يندد بقطع الرحم ،

(١) الديوان : ص ٤٢٣ ط دار النهضة العربية بمصر ١٩٧٢ ـ شرح د. محمد محمد حسين.
(٢) الديوان : ص ١٦٥ .
(٣) السابق : ص ٣٥٥ .

ويحرص على صلة بنى الأعمام .. وهذا هو مذهبه الذى يدين به فى علاقته مع بنى عمه وجميع ذويه . يؤكد هذا أنك تراه فى قصيدة رابعة يقرر أن الإنسان يجب أن لا يزهد فى وصل ذوى القربى ، ولا يتباعد عن قومه فيخذلهم إذا مسهم الضر ، فإن المجد لا يتحقق إلا بمشاركته لهم فى خطواتهم إليه ، فيقول

ولا تزهدن فى وصلِ أهل قــرابةٍ .·. ولا تك سبعاً فى العشيرة عاديا
ولا تخذلن القــوم إن ناب مــغــرمٌ .·. فإنك لا تعدم إلى المجدِ داعيا (١)

ـ وهذه هى الخنساء تقول فى وصف أخيها صخر :

ولا يقـــوم إلى ابن العم يشـــتـــمـــه .·. ولا يدب إلى الجــارات تخــويدا (٢)

ـ وهذا هو أوس بن حجر يفخر بعفوه عن ابن عمه حين يظلمه ويعتدى عليه ، وبتقديم الرأى الصائب حين يستشيره ، فيقول :

ألا أعــــتبُ ابن العم إن كـــان ظالما .·. وأغفر عنه الجهل إن كان أجهلا
وإن قال لى : «ماذا ترى ؟» يستشيرنى .·. يجِدْنى ابنَ عمٍّ مخلط الأمر مزيلا (٣)

وهذا هو لبيد بن ربيعة يثنى على قومه الذين يكرمون ابن العم ولا يوجعونه بإهانة ، فيقول :

لم يهـــينوا المولى على حـــدث الدهر .·. ولا تجـــتـــريهم الأصـــهـــار (٤)

وواضح أن النماذج السالفة كلها من العصر الجاهلى .. الأمر الذى يوضح أن التنافر بين القبائل الجاهلية لم يمنع من قيام الروابط القوية ، ولا كان سبباً فى

---

(١) ديوان الأعشى : ص ٣٨١ ، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين ، ص دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٤ .
(٢) ديوان الخنساء : ص ٢٠ ط دار التراث بيروت ١٩٦٨ .
(٣) ديوان أوس بن حجر : ص ٨٣ ط دار صادر بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٩م بتحقيق د. محمد يوسف نجم .
(٤) المنتخب من أدب العرب لطه حسين وزملائه : ٤٠٨/٢مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢م

تلاشى صلة الرحم بين أولى القربى . والرائع ـ حقاً ـ أن هناك ما يكاد يشبه الإجماع من الشعراء الجاهليين على ضرورة وصل الرحم ، والتسامح عن هفوات ذوى القربى ، بل إن بعضهم قد قرر بأن قطع الرحم يشبه قطع العضو من الجسد ، وقرر آخرون أن الانتقام لسبب ما من الأقارب يعود ضرره على المنتقم ولو كان انتقامه من قريبه يشفى ألماً فى نفسه .

والنماذج المؤيدة لذلك كثيرة ، فمنها ـ على سبيل المثال ـ قول عبيد بن الأبرص:

ولا تزهدن فى وصل أهل قرابة ∴ لذخر ، وفى وصل الأباعد فازهد (١)

وقول زهير بن أبى سلمى :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ∴ على قومه يستغن عنه ويذمم (٢)

وقول الأعشى يمتدح الأسود بن المنذر اللخمى بأنه يصل الرحم ، ويفك الأسرى من الأغلال :

وصلات الأرحام قد علم النا ∴ س ، وفك الأسرى من الأغلال

وقول عنترة بن شداد العبسى :

وأحمى حمى قومى على طول مدتى ∴ إلى أن يرونى فى اللفائف أدرج (٣)

وقوله أيضاً :

أحب بنى عبس ولو هدروا دمى ∴ محبة عبد صادق القول صابر

وأدنو إذا ما أبعدونى وأتقى ∴ رماح العدا عنهم ، وحرّ الهواجر(٤)

وتقول أم حكيم فى رثاء أبيها عبد المطلب :

---

(١) ديوان عبيد : ص ٥٦ ط مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م تحقيق وشرح د. حسين نصار .

(٢) ديوان زهير : ص ٨٧ ط دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م .

(٣) ديوان عنترة ك ص

(٤) السابق : ص ٨٤ ، شرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبى وزميله الإبيارى .

ألا يا عين جـــودى واســتــهلى ∴ وبكّى ذا الندى والمكرمـــات
وصـــولا للقـــرابة هزبريا ∴ وغيثا فى السنين الممحلات (١)

وقال قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ـ عندما قتل ابن عمه ، حمل بن بدر ، يوم حفر الهباءة ثأرا منه لأنه قتل أخاه :

شــفيت النفس من حـمل بن بدر ∴ وسيـفى من حـذيفـة قـد شـفـانى
فـــإن كـــانت بهم بردْت غليلى ∴ فلـم أقـطـع بـهـم إلا بـنــانـى (٢)

وتصوير الندم على قطع الرحم هنا تصوير رائع ، فالشاعر وإن شفى نفسه بالثأر من ابن عمه قاتل أخيه حذيفة يرى كأنه قطع شيئاً من جسده بمقتله . وأروع من هذا قول الحارث بن وعلة الجرمى ـ مصوراً أن بنى عمه فجعوه بقتلهم لأخيه ، ولكنه إذا انتقم منهم عاد ضرر ذلك عليه ، لأن عز الإنسان بعشيرته ، فهو فى حيرة من أمره ، إن عفا عنهم صفح عن أمر عظيم ، وإن انتقم منهم أوهن عظامه :

قـــومى همُ قـــتلوا أمـــيم أخى ∴ فـإذا رمـيتُ يصـيـبنى سـهْمى
فلئن عـــفـــوت لأعـــفـــون جللاً ∴ ولـئـن سطـوت لأوهنَن عظْمى (٣)

والنماذج السالفة – وهى غيض من فيض ـ تؤكد ما سبقت الإشارة إليه من تمسك العربى ـ فى الجاهلية ـ برحمه وأهله . وليس عجيباً أن يقف الشاعر الجاهلى من ذوى قرباه هذا الموقف الطيب ، فأهل الإنسان خير له من الأباعد ، ولو أركبوه مراكب صعبة ، وعشيرة الرجل أنفع له فى إيصال الخير ودفع المضرة من الأجانب . وليس عجيباً ـ كذلك ـ أن نسمع أحدهم ـ وهو البرج بن مسهر

(١) مراثى ستين شاعرة من شواعر العرب ط ١٣٦ ط دار التراث بيروت ١٩٦٨ ملحق بشرح ديوان الخنساء .
(٢) ديوان الحماسة لأبى تمام : ١ / ٦٤ ط ١٩٢٧ بشرح محمد سعيد الرافعى .
(٣) السابق والصفحة .

الطائى ـ يبث شوقه وحنينه إلى وطنه وأهله ، ويستعطفهم ويتذمم من مراغمتهم ويظهر الحاجة إليهم ، ويصف سوء حالة النساء ، ويعد بترك الخلاف مع ذويه إلى الأبد إن عاد إلى وطنه ، ويقرر أنه سيقيم به بقية عمره ، فلا حياة عزيزة إلا بين الأهل والأقارب ، ولا كرامة إلا على ثرى الوطن :

تركنا قومنا من حرب عام ٠٠٠ ألا يا قوم للأمر الشتات
وأخرجنا الأيامى من حصون ٠٠٠ بها دار الإقامة والثبات
فإن نرجع إلى الجبلين يوما ٠٠٠ نصالح قومنا حتى الممات[1]

وإذا كان الشعراء فى العصر الجاهلى قد وقفوا من أقاربهم هذا الموقف الطيب القائم على التمسك بصلة الرحم والاعتزاز بها ، فليس من المعقول ـ قطعاً ـ أن يقف الشعراء الذين جاءوا بعد ظهور الإسلام موقفاً مغايراً .

لقد سبقت الإشارة إلى حث الإسلام ـ قرآناً وسنة ـ على صلة الرحم ، حتى إنه جعل النار عقاباً لمن يقطع رحمه ، ويسيئ إلى ذويه . وما أكثر الآيات الداعية إلى الإحسان بذى القربى ! ولو لم يرد فى القرآن الكريم إلا قوله تعالى : «الأقربون أولى بالمعروف» لكفى . ومن الطبيعى أن يتأثر الشعراء الذين دانوا بالإسلام ، واستجابوا لتعاليمه بحثه على صلة الرحم ، ومن الطبيعى أن تتعدد قصائدهم المنشودة فى هذا الخلق الكريم .

استمع ـ على سبيل المثال ـ إلى الشاعر معن بن أوس المزنى المتوفى سنة ٦٤ هـ وهو يقول :

---

(١) السابق : ص ١٣٦ . وأنظر : الجانب الخلقى فى الشعر الجاهلى للدكتور / رهدى الخواجا : ص ٣٠٠ ، المطابع الأهلية للأوفست بالرياض ١٤٠٤ هـ /١٩٨٤ م .

وذى رحم قلمت أظفـــــار ضـــــغنه * بحلمى عنه ، وهو ليس له حلم
إذا ســـمـــتـــه وصل القـــرابة ســـامنى * قطيعـتـهـا ، تلك السـفـاهة والظلم
وأســـعى لكى أبنى ، ويهـــدم صـــالحى * وليس الذى يبنى كـمن شـأنه الهـدم
يحـــاول رغـــمى لا يحـــاول غـــيـــره * وكـــالموت عندى أن ينال له رغم
فـــإن أنتـــصـــر منه أكن مـــثل رائش * سـهـام عـدو يستـهـاض بهـا العظم
فـــبـــادر منى الدأي ، والمرء قـــادر * على سـهـمـه مـا دام فى كـفـه السـهم
فـإن أعف عنه أغـضن جـفنا على القـذى * وليس له بالصـــفح عن ذنبـــه علم
حـــفظت الذى قـــد كـــان بينى وبينه * وهل يستوى حرب الأقارب والسلم؟
فـــمـــا زلت فى لين له وتعطف * عليـــه كـــمـــا تحنو على الولد الأم
لأســـتل منه الضـــغن حـــتى اســـتللتـــه * وإن كان ذا ضغن يضيق به الحزم [1]

ـ إنها حقاً قصيدة متينة الأسلوب ، فخمة المعانى ، سامية الغرض ، نبيلة الموضوع ، حتى إن أبا هلال العسكرى [2] وصفها بأنها مما يستجاد من الشعر ، ونحن معه فيما رأى ؛ فالقصيدة رائعة فى قيمها الموضوعية والفنية ، وجديرة بأن تتبوأ مكاناً سامياً فى موكب الأدب الهادف ، والشعر الإسلامى الرفيع ؛ وقد قدم الشاعر من خلالها تصويراً حياً لمواقفه النبيلة ممن يسيئ إليه من ذوى رحمه . وذو الرحم ـ كما نعرف ـ لفظة عامة ينضوى تحتها سائر أقارب المرء . وقد بنى الشاعر تصويره لموقفه من خلال تلك المفارقة التى أوضحها بينه وبين أهله وذوى قرابته ؛ ففى الوقت الذى يقلم فيه أظفار ضغنهم بحلمه عنهم يفعلون عكس ذلك . وفى الوقت الذى يحافظ فيه على صلة الرحم يقابل منهم بالقطيعة ظلماً وسفاهة ، وبالتفنن فى إكراهه وإجباره على مالا يريد . وفى الوقت الذى يصفح فيه عن إساءاتهم إليه يجازى بالعكس وفى الوقت الذى يسعى فيه لإقامة المجد لهم وحفظ

(١) تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ : ١ / ٤١٩ ، ٤٢٠ ط ٢ دار العلم للملايين بيروت .
(٢) أنظر : ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : ١ / ٥٣ ط مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٢ هـ.

السمعة الطيبة والأثر الحسن بين الناس ينالون من بنائه ويعمدون إلى تقويضه مع أنه بناء صالح محمود الأثر .وفى الوقت الذى يعاملهم فيه بلين وتعطف يكلون له فى قلوبهم ضغائن يضيق بها الحزم ، وتنفر منها النفس . وفضلاً عن هذه المقابلات التى أبرز الشاعر عن طريقها موقفه وموقف قومه ، والتى استخدم فى بعضها أسلوب الشرط تارة بإذا ، وأخرى بإن ؛ فإنه أشار إلى بعض مواقفه النبيلة المؤكدة لتمسكه بصلة الرحم واعتزازه بها مثل : مبادرته الكريمة بترك الانتقام منهم على الرغم من قدرته على الانتقام منهم بسهامه الحادة ، ومثل صبره على أذاهم مع أن ذلك يؤلم نفسه ، ومثل ابتعاده عن كل ما يسيئ إليهم إيماناً منه بأن الإساءة إليهم تعد إساءة إلى نفسه ، وبأنه لو انتصف منهم وعاملهم كما يعاملونه ، وانتصر عليهم كان شبيهاً بذلك الرجل الذى يعد لعدوه سهاماً ثم يعطيه إياها فتنكسر عظامه بالسلاح الذى أعده . وفى النهاية أشار الشاعر للنتيجة الطيبة التى ظفر بها من وراء هذا المنهج الذى يسلكه مع قومه ، حيث تمكن من استلال ضغائنهم ، وتطهير قلوبهم من العداوة والجفاء. وهذه النتيجة تذكرنا بقول الله تعالى : « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » [(١)]. حتى لكأن هذه الآية هى المحور الذى دارت حوله الأبيات .

فالقصيدة دستور وضعه الشاعر لنفسه فى معاملته مع أهله ، وقد بنى هذا الدستور على جملة من القيم النبيلة التى يعتز بها ويتمسك ، وهى ـ كما رأينا ـ : صلة الرحم ، الحلم بالأقارب ، والسعى فى بناء المجد لهم ، والعفو عن إساءاتهم ، والعيش معهم بسلام ، والحنو عليهم كباراً وصغاراً ، والحفاظ على مودتهم ، والصبر على أذاهم .

---

(١) سورة فصلت : الآية ٣٤ .

هذا عن القيم الموضوعية فى تلك القصيدة . أما القيم الفنية فمعالمها فى القصيدة عديدة . منها ـ على سبيل المثال ـ تنويع الشاعر فى استخدام الفعل الدال على وقوع الحدث ، فأحياناً يستخدم الماضى مثل (قلمت ـ سمته ـ سامنى ـ بادر ـ حفظت ـ استللته) ، وأحياناً أخرى يؤثر المضارع مثل (أسعى ـ أبنى ـ يهدم ـ يحاول ـ ينال ـ أنتصر ـ أكن ـ يستهاض ـ أعفو ـ أغضى ـ يستوى ـ تحنو ـ أستل ـ يضيق) ، ومما لا شك فيه أن الدارس لا يقوم فى التحليل الفنى بتحديد نوع الفعل لمجرد إظهار نوعه ؛ بل ليتخذ من ذلك وسيلة لاكتشاف الأسرار الجمالية لاستعمال فعل بعينه ، وبيان ما تضيفه طريقة الاستعمال للفعل من بُعد فنى وقيمة بلاغية فى المعنى المعبر عنه وقد أجمع البلاغيون ونقاد الكلام على أن الماضى من الأفعال يفيد تحقق الوقوع ، وأن المضارع يفيد التجدد والتتابع . وتلك هى المسحة الجمالية التى تتراءى لنا من استخدام الأفعال وتنويعها فى النص الذى نحن بصدده .

ومن الظواهر الفنية فى القصيدة : بناء جميع أبياتها ـ باستثناء الشطر الثانى من البيت الثامن ـ على الأسلوب الخبرى .

واستخدام هذا الأسلوب لا يكشف فحسب عن إخبار الشاعر بموقفه النبيل من قومه وموقفهم السيئ منه ؛ بل يتجاوز ذلك إلى الكشف عن إحساسه بالأسى والحزن لموقف أهله منه ومقابلتهم الإحسان بالإساءة وصلة الرحم بالقطيعة ، والحلم بالصغينة ، والبناء بالهدم ، والسلم بالعداوة ، واللين بالقسوة ، مما يوحى باختلاط الأشياء عند بعض الأقارب ، وقلبهم للمقاصد والغايات . فالأبيات تصوير حيوى بأسلوب خبرى لمعاناة الشاعر فى التعامل مع أهله .

على أن الشاعر قد نوع فى أساليبه الخبرية ، حين صدر بعضها بأداة الشرط وأتى ببعضها خالية من ذلك ، ولا ريب أن أساليب الشرط ذات

قيمة فنية عالية ؛ إذ تدل على وقوع الجواب كلما وقع الشرط ، مما يوحى بالتجدد والتكرار . وعد إلى النص وتأمل الأمثلة على ذلك تجد صدق ما أقول .

ولم يعتمد الشاعر فى إبراز موقفه وموقف أهله على التقريرية المحضة والمباشرة الخالصة ، فذلك ينأى بالشعر عن روحه وجوهره وتأثيره النفسى ؛ بل استعان بجملة من الصور الخيالية العذبة كالتشبيه الذى تلمحه فى البيت الثالث ، والرابع والخامس والسابع . وكلها تشبيهات جميلة مؤثرة ، ومن أجملها :

تشبيهه لنفسه إذا انتصر على قومه وانتصف منهم بذلك الذى يعد لعدوه سهاماً ثم يعطيه إياها مما يفيد إساءته إلى نفسه إذا أساء إلى قومه . وتشبيهه لحنو قلبه على أهله بحنو الأم على ولدها مما يوحى بعمق هذا الحنان ودوامه . زد على هذ تلك الاستعارة المكنية المشخصة فى قوله « قلمت أظفار ضغنه » وهى توحى بإبطال نتائج حقده أقاربه عليه إبطالاً تاماً . والاستعارة المكنية فى قوله « واسعى لكى أبنى ، ويهدم صالحى » ؛ فالبناء والهدم ـ هنا ـ ليس لأمر مادى ؛ بل لأمر معنوى هو المجد وحفظ السمعه الطيبة لأهله والأثر الطيب بين الناس . والكناية بتكسير العظام عن عمق الطعنة وشدة تأثيرها . والكناية بإغضاء الجفن على الوسخ عن ألم النفس فى صبره على أذى قومه مما يوحى بقوة التحمل ، ودناءة ما يحدث من الأهل من إساءة . والرائع ـ حقاً ـ أن كل صورة من هذه الصور جاءت فى موضعها لتؤدى المعنى المراد ، وتظهر عاطفة الشاعر المتألمة من موقف أهله منه .

أما عن الموسيقا والإيقاع الشعرى فى القصيدة : فقد اختار لها الشاعر بحر الطويل ، وهو بحر يناسب الموضوعات الجادة والعميقة ، والتى تحتاج إلى سرد

وبسط . ، والمعانى الجادة لا تؤدى ـ كما يرى الدكتور عبده بدوى نقلاً عن ابن العميد ـ إلا بنفس طويل ، ولا تتلاءم إلا مع الأعاريض الطويلة ، [1].

ولا أنسب للموضوع الذى يتناوله الشاعر ، ولا للمقابلة التى عقدها لإبراز موقفه وموقف أهله من هذا البحر الذى يتسع لمعانية ويتواءم مع عاطفته الحزينة من موقفهم منه ومعاملتهم السيئة له . ولقد شكل روى القصيدة المتمثل فى الميم المضمومة تصويراً صادقاً لمعاناته الشديدة فى تعامله معهم .

هذا فيما يتصل بالموسيقا الخارجية . أما الموسيقا الداخلية فتجلت فى مظاهر عدة :

ـ التنوين الذى شكل إيقاعاً موسيقياً ، ونغماً مؤثراً يشعر به القارئ فى بعض الكلمات مثل (رحم ـ رائش ـ عدو ـ قادر ـ جفنا ـ لين ـ تعطف ـ ضغن) .

ـ تكرار بعض الكلمات فى البيت الواحد مثل : تكرار الفعل الماضى (سام) فى البيت الثانى ، وتكرار (الحلم) فى البيت الذى قبله ، وتكرار المضارع (أبنى) فى البيت الثالث ، وتكرار المضارع (يحاول) فى البيت الرابع ، وتكرار (السهم) فى البيت السادس ، وتكرار الفعل (أستل) فى البيت الأخير . ولا ريب أن هذا التكرار يحدث جرساً موسيقياً تنفعل له النفس ، ويعنى أهمية لدى الشاعر لما يوحى به من مردود نفسى عنده .

ـ بروز بعض الحروف وهيمنتها على ما سواها كحرف الميم ـ مثلاً ـ فقد جعله الشاعر رويا للقصيدة ، ثم أبرزه كثيراً فى ثنايا البيت الواحد . ولا شك أن تكرار الحروف فى البيت الواحد يحدث موسيقا ويردد نغماً تطرب له الأذن وتستريح له النفس .

---

(١) أنظر : دراسات فى النص الشعرى لعبده بدوى : ص ١١٦ ، ١٢٨ .

ـ الطباق والمقابلة اللذان أحدثا فى القصيدة موسيقا خفية رائعة من خلال ذاك التضاد بينهما . أما المقابلة فقد سبق بيانها . وأما الطباق فمن أمثلته فى النص : (أبنى ويهدم) و (الوصل والقطيعة) و (الحرب والسلم) و (يحاول ولا يحاول) .

والقصيدة من قبل ومن بعد : ذات دلالة بينة على حب الشاعر لذوى رحمه ، واعتزازه بأواصر القربى ، وتمسكه بها ، وبمقابلته إساءة الأهل بالإحسان إليهم .

ومما تجدر الإشارة إليه : أن هناك قصيدة أخرى اختارها أبو تمام فى باب الأدب والحكمة من ديوان الحماسة ، وهى تماثل القصيدة السالفة فى عدد الأبيات وتتحد معها فى الحديث عن معاملة ذوى القربى بالحسنى على الرغم من إساءتهم ، وتقوم ـ مثلها ـ على المقابلة بين موقف الشاعر وموقف أهله منه ، لكن القيم الموضوعية التى تناولتها هذه القصيدة تختلف عن القيم الموضوعية فى القصيدة السالفة .

القصيدة المشار إليها لشاعر من شعراء العصر الأموى هو « المقنع الكندى » المعروف بجودة الإبداع وفصاحة اللفظ ومتانة السبك وإن كان مقلا . وكان المقنع قد « نشأ فى بيت وجاهة وسيادة ، ولكنه كان متخرقا فى عطاياه (كثير السخاء) سمح اليد بماله ، لا يرد سائلاً عن شئ حتى أتلف كل ما خلفه أبوه من مال ، فاستعلاه بنو عمه بأموالهم وجاههم . ثم إنه أحب ابنة عمه (بنت عمرو بن أبى شمر) فخطبها من إخوتها فرفضوا أن يزوجوه إياها ، وعيروه بفقره وإسرافه وبالديون التى كانت عليه »[1] . فنظم هذه القصيدة موضحاً سبب ديونه الكثيرة ،

(١) تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ : ١ / ٤٢١ .

ومصوراً ما بينه وبين إخوته وبنى عمه من أوجه الخلاف الشديد ، فقال :

يُعاتبنى فى الدَّين قومى ؛ وإنما * دُيونى فى أشياء تُكسبهم حمدا:
أَسُدُّ به ما قد أخلّوا وضيعوا * ثُغورَ حقوقٍ ما أطاقوا لها سدا
وفى جفنةٍ ما يُغلقُ البابُ دونها * مكللةٍ لحماً مدفقةٍ ثَردا
وفى فرسٍ نهْدٍ عتيقٍ جعلته * حجابا لبيتى ثم أخدمته عبدا
وإن الذى بينى وبين بنى أبى * وبين بنى عمى لمختلفٌ جداً
إذا أكلوا لحمى وفَرتُ لحومهم * وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبى حفظت غُيوبهم * وإن هم هووا غيى هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرا بنحسٍ تمرّ بى * زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقدَ القديم عليهمُ * وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جُلُّ مالى إن تتابع لى غنىً * وإن قلَّ مالى لم أكلفهم رِفدا
وإنى لعبد الضيف مادام نازلاً * وما شيمةٌ لى غيرها تُشبِع العبدا (1)

والقصيدة ـ كما ترى ـ من النماذج الرائعة فى تصوير صلة الرحم والحفاظ عليها والتمسك بها مهما كانت إساءة الأهل للإنسان . وصاحب القصيدة ـ كما يفهم من البيت التاسع ـ كان يحتل مكان الصدارة فى قومه ؛ فليس من الغريب إذا قابل إساءة إخوته وبنى عمه إليه بالإحسان إليهم ، ولا من الغريب ـ ما دام شاعراً أن يقدم لقرائه وسامعيه تلك اللوحة الفنية الرائعة التى تصور مدى التباين والتضاد بين معاملته لأهله ، ومعاملتهم له ، والتى تعرض لقطات منوعة من جملة القيم الرفيعة التى كان العربى القديم يعتز بها ، وينظر إليها على أنها من الأمور التى يتحتم على الرجل الفاضل التخلق بها ، ولا سيما إذا كان زعيماً لقومه

(1) السابق : ص ٤٢١ ، ٤٢٢ . والجفنة : الوعاء الواسع . والفرس النهد العتيق : العالى الأصيل الكريم الجيد . والبيت : بيت القوم (القبيلة) . وأكل اللحم : التقول على المرء بالسوء والقول الذى يؤلمه . والغيب : السر . والدفد : العطاء.

وإذا كانت الأبيات تنم عن عاطفة الفخر والاعتزاز بصلة الرحم ، والتخلق بالقيم الفاضلة ؛ فإنها فى الوقت ذاته تكشف عن العاطفة الآسية الحزينة لما كان يلقاه صاحبها من سوء معاملة إخوته وبنى عمه له .

والحديث عن مضمون القصيدة وقيمها الموضوعية يقتضى تقسيمها إلى قسمين مترابطين أشد الارتباط :

القسم الأول (من ١ : ٤) :

وفيه يشير الشاعر إلى عتاب قومه له على ماحل به من ديون كثيرة ، ثم يوضح أسباب هذه الديون ، فيذكر أنه استدان المال حين رأى بعض قومه يضيعون أو أوشكوا أن يضيعوا عدداً من حقوق القبيلة فاضطر هو إلى الاستدانه حتى يحافظ عليها . وواضح أن الشاعر فى ذكره لهذا السبب لم يفصح عن سبب عجزهم عن المحافظة على الحقوق المشار إليها ، وهذا ـ فى تقديرنا ـ يحتمل أحد أمرين : إما اتصافهم بصفة البخل ، وإما فقرهم الشديد ، والاحتمال الأول هو الصواب عندنا ؛ فقد سبق أن ذكرت أن بنى عمه قد استطوه بأموالهم وجاههم . وواضح ـ كذلك ـ أن بنى عمه كانوا يقفون من بقية أفراد القبيلة موقفاً سلبياً ؛ حيث أخلوا بحقوق القبيلة عليهم ، وضيعوا كل ما تقتضيه أواصر القربى من ترابط وتعاون ... الأمر الذى يوحى بأن نظرتهم إلى الحياة كانت نظرة مادية بحته ، يطغى فيها إحساس الفرد بذاته على إحساسه بإخوته وبنى عمومته ، وينوجه كل واحد منهم إلى بناء مجده الخاص ، دون التفات إلى ما ينبغى أن يكون لذوى قرباه من أمجاد .

وذكر الشاعر ـ أيضاً ـ أنه استدان المال ليتمكن من توفير القرى (لحما وخبزا) لمن يحل على القبيلة ضيفاً ... وهذا معناه أنهم يغلقون أبوابهم هرباً من

الضيفان فيتحمل هو ـ باعتباره صاحب الصدارة فيهم ـ مسئولية إكرام الضيف الأمر الذى يوحى ـ أولاً ـ بجوده ، وحرصه عليه ، ويوحى ـ ثانياً ـ بحرصه الشديد على أن تكون صورة القبيلة ـ فى عيون الناس ـ صورة مشرفة ، فلا يعرف عنهم أنهم قوم بخلاء يتخلون عن إكرام الضيف ، ولا يقومون بالواجب الذى تحتمه البيئة والتقاليد العربية .

وذكر الشاعر ـ أيضاً ـ أنه استدان المال ليوفر الخيل القوية المدربة التى تمكنه من حماية القبيلة والدفاع عنها وقت البأس .

والمتأمل لهذه الأسباب التى ذكرها الشاعر لاستدانته يجد أنه كان يستحق عليها الشكر والتقدير من قومه بدلاً من اللوم والعتاب ؛ فقد أفصح فى الشطر الثانى من البيت الأول : أن ديونه كانت بسبب هذه الأمور الثلاثة فقط ، وأنها أمور تكسبهم حمداً بين الناس ، وترفع منزلتهم بين القبائل ، وتحقق لهم مجداً وشرفاً وسمعة طيبة ، وأنه لو لم يقم بما قام به من واجب الضيافة للغرباء ، وإعداد السلاح للأعداء ، لضاعت سمعتهم ، وتلاشت هيبتهم ، وانحطت مكانتهم فى مجتمع كان السخاء له ديدنا ، والدفاع عن القبيلة فيه أمرا محتما .

هذا عن القيم الموضوعية فى القسم الأول من القصيدة . وأما القسم الثانى فقد عرض فيه الشاعر لقطات منوعة من المفارقة بينه وبين إخوته وبنى عمه ، وهى لقطات تبرز مدى الخلاف الشديد بين معاملتهم له ومعاملته لهم ؛ ويظهر من خلالها التناقض التام بين موقفهم منه ، وموقفه منهم ؛ فقد كانوا يغتابونه ويتقولون عليه سوءا وقولاً قبيحاً ، وكان هو بعكس ذلك . وكانوا ينالون من مجده ، ويعمدون إلى تقويضه حقداً عليه ، فكاد يرد على هذا بعكسه أيضاً ، فيقيم لهم المجد ، ويحفظ لهم السمعة الطيبة والأثر الحسن بين الناس ، ولا يعتبر ذلك منة عليهم بل يراه واجباً محتماً لابد أن يضطلع به بحكم انتمائه لهم وحرصه على

مجدهم من جهة ، ويحكم تبوئه مركز الصدارة فيهم من جهة أخرى . وكانوا يذيعون أسراره ، ولا يدافعون عنه إذا سمعوا أحد يذكره بسوء ، فكان يرد على هذا بما يغايره قلبه بحب النفع والنجاح والهداية لهم. وكانوا يتمنون له كل شر بينما يتمنى هو لهم كل خير . وكانت قلوبهم تمتلئ بالأحقاد الدفينة عليه بينما هو منزه من هذا الخلق الذميم ، ولا غرو فرئيس القوم لا يحقد على أهله ، وليس لهم منه إلا الحب كل الحب . وكان يعطيهم أغلب ماله فى حال الوفرة والغنى ، ويمتنع عن طلب العون منهم عند الفاقة . وقضى حياته عبدا للضيف ـ سواء كان نازلاً عليه أو نازلاً عليهم ـ يجود عليه مهما كلفه الجود ، ويخدمه مهما شقت عليه الخدمة ؛ لأن إكرام الضيف شيمة أصيلة لديه ؛ ولأنه واحد منهم ينوب عنهم فى هذا المجال ؛ بل هو شيخهم الحريص على كل ما يحقق للقبيلة سمعة طيبة فى مجتمع اتصف بالجود ، وبالغ فى إكرامه الضيف .

ـ ويلحظ الدارس أن الشاعر قد انتقل من القسم الأول للقسم الثانى بواسطة العطف بالواو المتلوه بإن المؤكدة ، فقال :

وإن الذى ..... الخ .

وكان فى إمكانه أن يقول : ولكن الذى ..... أو يلجأ إلى العطف بغير الواو كالفاء ، وثم ؛ لكنه آثر العطف بالواو وإن المؤكدة دون غيرها من أدوات الربط السالفة ، لأن الربط (بالواو وإن) يجعل ما قبلها متحداً بما بعدها حتى يصبحا كأنهما كلام واحد . وذلك لا يحدث عند الربط بالأدوات الأخرى . على أنه قد جعل اسم إن المنصوب اسماً موصولاً (الذى) ، ومعروف أن الموصول لا يتضح بدون الصلة ، وذلك يجعل ما بينه وبين إخوته وبنى عمه من خلاف جد كبير وغير محدد . وقديماً ذكر النقاد العرب ـ من أمثال عبد القاهر الجرجانى ـ أن الربط بين الجملتين بإن المؤكدة ذو قيمة فنية علاية ، وضربوا لذلك أمثلة

عديدة ، كقول الله تعالى : « إن هذا ما كنتم تمترون . إن المتقين فى جنات وعيون » ، وقول بشار بن برد :

بكرا صاحبى قبل الهجير ٠٠ إن ذاك النجاح فى التبكير

وقول آخر

جاء شقيق عارضا رمحه ٠٠ إن بنى عم؛ فيهم رماح

وقال النقاد ـ فيث بيان القيمة الفنية للربط بإن المؤكدة ـ : إنها تقوم بما يقوم به الفاء من الربط بين الجملتين ، وتزيد على ذلك أمرا عجيباً ؛ فالكلام معها مستأنف ، مقطوع وموصول معاً . كما أنها تهيئ الفكرة لأن يكون لها حكم المبتدأ ، أى أن يكون محدثا عنها حتى وإن لم يكن لها مسوغ .

ولا أغلو إذا قلت أن إيثار الشاعر لهذه الأداة فى الربط بين قسمى القصيدة مثال واحد من عشرات الأمثلة الدالة على أن الوعاء الفنى لتجربته الشعرية وعاء فى ذروة البلاغة العربية ، ويتبوأ أعلى مكان فى سماء الفن ؛ فكل كلمة ، وكل عبارة ، وكل صورة جاء بها لم تكن إلا رافدا للمعنى الذى وضع قصيدته من أجله.

يؤكد هذا أنك لو تفحصت القصيدة وجدت فيها فضلاً عما سبق :

ـ استخدامه ـ فى بعض الأبيات ـ الأفعال الدالة على تحقق الوقوع .

ـ وإيثاره الألفاظ ذات الإيحاءات المتعددة.

ـ والتناسب الواضح بين الوعاء الفنى وموضوع التجربة

ـ والنقاء فى السياق .

ـ والبعد فى التركيب عن الغموض والتواء القصد .

ـ وإيثار الفعل المبنى للمجهول إذا اقتضى المقام ذلك .

ـ واستعمال أساليب القصر ، والتنويع بينها .

ـ والإكثار من الكنايات فى التصوير لبلاغتها العالية المعروفة .

ـ واختيار البحر العروضى المناسب لموضوع القصيدة .

ـ ثم أسلوب المقابلة التى إتكأ عليها فى تصوير موقفه وموقف إخوته وبنى عمه .

هكذا قول حين أجمل القول باختصار عن القيم الفنية الرفيعة فى هذه القصيدة التى تعد ـ بحق ـ من أروع الشعر نحدث عن « صلة الرحم » ، والشعر المنشود حول أبناء العم .

فإذا كان لابد من التفصيل ، فانظر ـ إلى قوله : « يعاتبنى فى الدين قومى » ، فإن هذه العبارة تشعر القارئ بأن ر كان ذا مال ، وأنه أضاع ماله ، فاستدان ، وبدلا من أن يقف معه بنو عمه وقوته فى هذه المحنة راحوا يوجهون له العتاب واللوم ـ لا مرة واحدة ؛ بل مرات ومرات ومرات ـ متجاهلين الظروف التى أوقعته فى هذه المحنة . على أن الفعل (يعاتب) يوحى ـ من ناحية أخرى ـ بعلو مكانته أو ـ على الأقل ـ أنه ليس أقل منزلة ممن يعاتبه ، بخلاف « يلوم » مثلاً الذى قد يكون من الكبير للصغير أو من الأعلى للأدنى . وإذا كان العتاب دليل المحبة ـ كما يقال ـ فمعنى هذا أن ما كان بينه وبين بنى عمه وإخوته من اختلاف شديد لم يضيع مكانته فى عيونهم ، ولا كان سبباً فى بغضهم له ، وعدم توقيرهم إياه . وكان هو تحت كل الظروف يأسرهم بإحسانه ، ويجمعهم بمعروفه ، ويصل ما قطعوه ، ويبنى ما هدموه ، ويحفظ ما ضيعوه . وكل هذه الدلالات تتولد من خلال التعبير بالمضارع (يعاتب) دون سواه .

وهكذا الشأن فى الدلالة والإيحاء لو نظرت إلى بقية المضارعات الواردة فى النص مثل (أسد – تكسبهم - أحمل - يحمل - أكلف) فكلها توحى بوقوع ما تعبر عنه غير مرة . وهكذا الحال - أيضاً - فى الفعل الماضى(تتابع) الذى استعمله فى مجال ما يقدمه لإخوته وبنى عمه من العون فى حال وجود الغنى ، فإن هذا الفعل وبالصورة التى جاء عليها يوحى بأن الضائقة المالية التى يعانيه قومه عليها إنما هى أزمة طارئة ، وأنها لن تستمر . كما يوحى بأن رفده لهم كثيرا ما يحدث ، وأن عطاياه لا تتوقف إلا عند الفاقة - ونادرا ما تحدث - ومما لا شك فيه أن هذه الإيحاءات تسهم فى عمق الإحساس بالمرارة والأسى وهى الغاية التى يعبر عنها شاعرنا المقنع . وهكذا الحال - أيضاً - فى وصفه للجفنة التى يقدم فيها الطعام للضيف بأنها جفنة مكللة لحما مدفقة ثردا ؛ فإن « مكللة » و « مدفقة »اسما مفعول مشتقان من الفعل المضعف « كلل » و « دفق » على التوالى ، والفعل المضعف يشير - كما نعرف - إلى الكثرة والتوالى ، وذلك أوقع فى الدلالة على الكرم الزائد والجود البالغ . على أنه قد زبرز اللحم وهو فى الجفنة فوق الثريد فى صورة بديعة حين استعار له الإكليل الذى يوضع على الرأس مرصعاً بالجواهر للزينة .. الأمر الذى يوحى بكثرة اللحم وجودته وظهوره بشكل واضح جميل فوق المأدبة . وعلى أنه قد أجاد فى تقديم اللحم المكلل على الثريد المتدفق لاعتبارات القافية من ناحية ، ولأن اللحم مقدم على الثريد من ناحية أخرى . وعلى أنه قد آثر التعبير عن إناء الطعام بلفظ « الجفنة » وهى الوعاء الكبير الواسع للدلالة على السخاء والمبالغة فى الكرم . وعلى أنه قد وصف الجفنة بأنها جد واسعة تملأ البيت حتى لا يستطاع إغلاق بابه ، أو أن باب بيته مفتوح دائم لكل ضيف ، فليس ثمة حاجز إطلاقاً بين القرى والضيف . وفى هذا ما فيه من الإيحاء بالجود البالغ والعناية بإكرام الضيف .

وانظر ـ مثلاً ـ إلى الأفعال : (أخلوا ـ ضيعوا ـ ما أطالوا) فهذه الأفعال تكشف عن خوفه من أن يعرف قومه بأنهم يخلون بحقوق القبيلة ، ويضيعون ما يحقق لهم الذكر الحسن ، ولا يستطيعون الحفاظ على القيم التى يعتز بها العربى ، ومن ثم فهو يحرص على القيام بما فرطوا فيه . كما تكشف هذه الأفعال عن مدى الجهد الذى عاناه فى سبيل القيام بذلك .

وانظر كيف عبر عن وسائل الدفاع التى أعدها لحماية القبيلة من أعدائها بالفرس القوى المربى تربية ممتازة والمدرب تدريباً جيداً ، فهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث عبر بالجزء عن الكل . ولا غرو فى اختيار الفرس بالذات من بين وسائل الدفاع ؛ فالفرس ـ كما هو معروف ـ كان نقطة مضيئة فى حياة العربى القديم ؛ فكان يعنى بتربيته ، ويتفنن فى تدريبه ، ويثنى عليه فى وصفه ، ويبكيه إذا مات ؛ لأنه يسهم فى صنع مجده ، ويساعد فى انتصاراته .

وانظر : كيف عبر عن حقوق القبيلة بالثغور ؛ فهذه استعارة مكنية مشخصة تبرز هذه الحقوق فى صورة المواقع الحربية التى يتحتم الدفاع عنها حتى لا يستولى عليها الأعداء . وقد حمل الشاعر نفسه مسئولية الدفاع عنها حين تبين له عجز قومه عن الدفاع .

وانظر إلى بناء الفعل للمجهول فى قوله : « وفى جفنة ما يغلق الباب دونها » ففى مجيئ الفعل على هذه الصيغة دلالات عدة ماكانت لتتحقق لو جاء مبنياً للمعلوم . وهذه الدلالات هى :

أولاً : القيام بواجب الكرم على أحسن ما يكون الأداء ؛ فلا حاجز بين الضيوف والقرى ، وفى هذا إيحاء بكثرة المترددين عليه .

ثانياً : الإشارة إلى أن جميع أهل البيت - صغاراً وكباراً - لا يغلقون الباب ، ولا يحولون بين الضيف وما يريد .

ثالثاً : أن الشاعر ذو مكانة رفيعة ، فلم يقل : « وفى جفنة ما أغلق الباب دونها » لأن من كانوا مثله من السادة الكبار لا يقومون بمثل هذا العمل ؛ وإنما يقوم به الخدم الصغار . ومن المؤكد أن الشاعر قد عمد إلى هذه الصيغة للدلالة على هذا المعنى ؛ لأننا رأيناه فى بيت أخر من القصيدة يزيد من تعميق معنى السيادة عنده باستخدامه لصيغة « أفعل » فى قوله عن فرسه « أخدمته عبدا » فهذه الصيغة فى دلالتها عن السيادة - تختلف تماما عما لو قال : « خدمه عبد » .

وانظر إلى تنكيره لكلمة « فرس » فهو تنكير مقصود للدلالة على أنه يعنى جنس الفرس كله ، وللإشارة به من جهة ثانية . ولو كان قد جاء بالكلمة معرفة بالألف واللام ما أفادت هذه الخصوصية .

وإذا كان الأسلوب الخبرى قد فرض نفسه ليكون وعاء فنيا لإخراج التجربة فإنه قد احتوى بداخله ألواناً من أساليب القصر المفيدة للتخصيص والتوكيد وتقوية المعنى .

وأول ما يصادفنا فى النص من هذه الأساليب قوله : « يعاتبنى فى الدين قومى » حيث قدم ما حقه أن يتأخر - أعنى : الجار والمجرور على الفاعل - وهذا يفيد : أن عتاب قومه له لم يكن إلا فى الدين .. الأمر الذى يوحى بأنه رجل كامل لا يعمل عملاً أخر يمكن أن يوجه له العتاب بسببه إلا هذه الحالة ، فإذا ظهر السبب فيها ، ووضحت الأمور حولها ، رفع ذلك من شأنه ، وأعلى من مقامه .

وثانى ما يصادفنا من أساليب القصر قوله : « وإنما ديونى فى أشياء تكسبهم حمداً » ، وصوغ العبارة على هذا النحو يبين قصر ديون الشاعر على ما يحقق لقومه الذكر الحسن والسمعة الطيبة والمناقب الحميدة .. الأمر الذى يوحى بنبل السبب فيما اعتراه من ديوم ، كما يوحى بعمق الأسى الذى يملأ قلبه من عتاب قومه له على شئ لا يبغى من ورائه إلا الخير لهم .

وثالث ما يلقانا من هذه الأساليب قوله : « لهم جل مالى » فقد قدم الخبر على المبتدأ فأفاد التقديم أن أغلب مال الشاعر كان لأفراد قبيلته ، فكان هو المعطى، وكانوا هم الآخذين .. الأمر الذى يوحى بأنه كان شيخاً للقبيلة من طراز خاص ، يختلف عما كان سائد من نظم القبيلة التى كانت تفرض أن يأخذ شيخ القبيلة أكثر مما يعطى ليتمكن من إظهار القبيلة أمام القبائل الأخرى بمظهر مشرف يعلى من شأنها جوداً ، ويرفع من قدرها قوة .

ورابع ما يلقانا من هذه الأساليب : قوله - بعد الأسلوب السابق مباشرة : « إن تتابع لى غنى » حيث قدم الجار والمجرور « لى » على الفاعل « غنى » ، فأفاد التقديم أنه لا يعطى إلا من ماله . وأنه حين يعطى إنما يعطيهم هم ؛ فما لهم بعد ذلك يلومونه على ما بذله فى سبيلهم ؟! إن هذا الشئ عجاب !!

وآخر ما يلقانا من هذه الأساليب : قوله : « وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا » ، فصوغ العبارة بهذا الشكل يدلنا على ما كان يقوم به فى إكرامه للضيف نيابة عن إخوته وبنى عمه من خدمته بنفسه ، وإجابته فى كل مطالبه ، ولين الجانب معه ، والسهر إلى جواره كأنه واحد من الأقارب خادم لسيده . ولما كانت العبودية لغير الله مما تأباه النفس البشرية ولا سيما إذا كان المرء كبير القوم فإنه حصرها فى إكرام الضيف فقط .. الأمر الذى يفيد حرصه البالغ فى إكرام الضيف ، وتواضعه فى حضرته ، حتى لو وصل الأمر إلى حد العبودية ، والتحول

من السيادة إليها . ويفيد - كذلك - أنه يثبت لنفسه صفات العربى الأصيل من الإباء والشمم والترفع عن صغائر الأمور ، والبعد عن القيام بأعمال لا يقوم بها أمثاله من السادة الزعماء .

وإضافة إلى ما تقدم من أساليب القصر التى أبرزت المعانى فى حلل بهية لها من الدلالات والإيحاءات ما عرفناه ، فقد أكثر الشاعر من أساليب الشرط الدالة على وقوع الجواب كلما وقع الشرط . وهذه الأساليب واضحة فى غنى عن الذكر .

وعلى الرغم من أن حكاية الخبر هو الثوب الذى ارتداه الشاعر فى صوغ التجربة ، فإن ذلك لم يمنع من لجوئه إلى رسم الصور المتخيلة التى تساعد على إبراز معالم ما يريده بوضوح تام . وقد اعتمد فى رسم هذه الصور على الفنون البيانية من تشبيه ومجاز مرسل واستعارة وكناية . وقد سبق التلميح إلى ما احتواه النص من تشبيه فى « مكللة لحماً » ، ومجاز مرسل فى « الفرس النهد العتيق » ، واستعارة مكنية فى « ثغور حقوق » ، وفى « ضيعوا غيبى » و « هدموا مجدى » و « بنيت لهم مجداً » .

أما الكناية فهى الفن البيانى الشائع فى رسم الصور بالقصيدة ؛ فتراه - مثلاً - قد كنى عن الجود بالجفنة الممتلئة طعاماً ، والتى لا يغلق باب الدار دونها . وكنى عن حمايته لقومه بالإعداد الجيد لفرسه ، وبتكليف عبده بالعناية به استعداداً للحرب إذا ما دعا الداعى أو علا صوت النفير . وكنى عن القبيلة بالبيت إشعاراً بأن إخوته وبنى عمه هم الملاذ الذى يأوى إليه ويجد فيه راحته وسكناه . وكنى عن « الغيبة » بأكل اللحم . وواضح أنه قد استمد هذه الكناية من ثقافته الإسلامية ، فقد صور القرآن الكريم الغيبة أجمل تصوير فى قوله تعالى : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) ، وجاء فى السنة النبوية العطرة أن الرسول ﷺ قال لرجلين إغتابا مسلماً : « إنى أرى خضرة اللحم على أفواهكم » .

وكنى عما كان يتمناه إخوته وبنو عمه من الشر له بقوله بقوله : « زجروا طيرا بنحس تمر بى » ، وكنى عما كان يتمناه لهم من الخبر بقوله : « زجرت لهم طير تمر بهم سعدا » ، وواضح أن الكناية فى هذين الموضعين مستقاه مما شاع فى البيئة من مظاهر التفاؤل والتشاؤم .

وكنى عن استغنائه عنهم وقت الفاقة بقوله : « لم أكلفهم رفدا » . وكنى عن العناية بالضيف طوال إقامته عنده بالعبودية له .

فهذه كنايات عديدة عبرت عن المعانى بطريق غير مباشر ، فجاءت بها فى ثوب أنيق موضح ومشخص وحامل للمقصود ومعه الدليل .

وأما قالب الموسيقى الذى اختاره الشاعر للقصيدة فهو كما ترى « البحر الطويل » ، وهو بحر كانت العرب تسميه « الركوب لكثرة ما كانوا يركبونه فى أشعارهم » [1] . وقد أحسن الشاعر فى بناء قصيدته عليه ؛ لأنه بحرر طويل ممتد يناسب الموضوعات الجادة ، ويتسع لكل المعانى التى يريد الشاعر إبرازها . ومعروف أن البراعة فى اختيار البحر المناسب للموضوع من الأمور التى يحمد عليها الشاعر ؛ فقد أشار ابن طباطبا العلوى - مثلاً - إلى أن الشاعر « إذا أراد بنا قصيدة ، مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه والقوافى التى توافقه ، والوزن الذى يسلس له القول عليه » [2] ، وأشار المرزوقى - فى حديثه عن عمود الشعر - إلى « التحام أجزاء النظم ، والتئامها على تخير لذيذ الوزن » [3] ، واشترط صاحب الصناعتين أبو هلال العسكرى - فى عمل الشعر - أن تطلب لمعاينة وزناً يتأتى فيه إيرادها » [4] .

---

(١) الفصول والغايات : ص ٢١٢ - ٢١٣ .
(٢) عيار الشعر : ص ٥ .
(٣) مقدمة شرح ديوان الحماسة : ص ٩ .
(٤) كتاب الصناعتين : ص ١٣٩ .

فالائتلاف بين الوزن والمعنى متحقق فى هذه القصيدة ،. الأمر الذى يجعلنا نقرر- مطمئنين- أنها من النماذج التطبيقية انظرية الربط بين موضوع القصيدة وموسيقاها الخارجية .

وإلى جانب هذه الموسيقا الخارجية أو الظاهرة ، توجد فى القصيدة موسيقا داخلية أو خفية من مظاهرها :

أولاً : اختيار الشاعر لألفاظه وما بينها من تلاؤم فى الحروف رالحركات ، وما فيها من دلالات وإيحاءات . وقد سبق توضيح ذلك .

ثانياً : تكرار بعض الألفاظ مثل أسد- سدا ، لحمى- لحومهم ، مجدى- مجدا ، غيبى- غيوبهم ، هووا- هويت ، تمر بى- تمر بهم ، طيرا ، عبدا ، مالى .

ثالثاً : الطباق الذى جاء عفو الخاطر بين (هدموا وبنيت) وبين (ضيعوا وحفظت) وبين (الغى والرشد) وبين (النحس والسعد) وبين (الغنى وقلة المال) .

رابعاً : المقابلات البديعة التى أبرز الشاعر من خلالها مدى التناقض والتضاد بين موقف إخوته وبنى عمه منه وموقفه منهم ، والتى اتخذت مجموعة من الصور المتنوعة على النحو الذى أوضحناه فيما سلف .

- وهكذا يتضح لنا - بعد هذا الشرح المستفيض - روعة ما احتوته القصيدة من قيم موضوعية وقيم فنية . ونبل ما تدل عليه من حرص صاحبها على صلة الرحم ، ومقابلة إساءة إخونه وبنى عمه بالإحسان إليهم ، وحوصه الشديد على أن يعرفوا بين القبائل بالكرم ، وبالقوة ، وبكل المحامد التى تعلى من شأنهم ، وترفع من قدرهم ، وتزيد من شرفهم بين الناس . على أنها - من قبل ومن بعد - رائعة من روائع الأدب الإسلامى المعتز بصلة الأرحام أيما اعتزاز ، المتمسك بالقيم النبيلة أيما تمسك .

ـ هذا ويظفر القارئ المتتبع لعيون الشعر العربى بنماذج أخرى عديدة تشبه النماذج السالفة فى تمجيد صلة الرحم ، ومعاملة الأقارب بالحسنى ، وحتمية التعاون والمحبة والمودة بينهم . ومنها :

قول ليلى الأخيلية فى ثنايا مرثية لها فى ابن عمها توبة بن الحمير :

فعاش حميداً لا ذميماً فعاله ∴ وصولا لقرباه يُرى غير كالح[1]

وقال المضرس بن ربعى الأسدى ـ منددأ بقطع الرحم ومتمدحاً بأنه ليس من عادته مع بنى أعمامه : ـ

ولا أدفع ابن العم يمشى على حفى ∴ وإن بلغتنى من أذاه الجنادع
ولكن أواسيه ، وأنسى ذنوبه ∴ لترجعه يوما إلى الرواجع
وحسبك من ذل وسوء صنيعه ∴ مناواة ذى القربى وإن قيل : قاطع

وقال على بن المقرب العيونى مصوراً محافظته على صلة القربى مع بنى عمه وإن هم تعرضوا له بالأذى والكراهية :

وأصفح عن جهال قومى حمية ∴ وإن أسرجوا فى هدم عزى، وألجموا
وإن قطعوا أرحام بينى وبينهم ∴ وصلت ، وذو العليا أبر وأرحم
وأُغضي على عوراءِ قومى ، وإننى ∴ لأُبصر منهم ـ لوأشاءُ ـ وأعلمُ [2]

ـ واضح من النماذج السالفة أنها تكاد تكون صورة صبق الأصل مما قاله المقنع الكندى ، ومعن بن أوس ، وغيرهما ممن ذكرناهم فى هذا المقال .. الأمر

(١) الديوان : ص ٦٢ ، جمع وتحقيق : خليل العطية وآخر .

(٢) الديوان : ص ٤٤٩ ، ط البابى الحلبى بمصر ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣م بتحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو .

الذى يفهم منه أن المعانى التى ذكرت فى باب صلة الرحم ومعاملة أبناء العم بالحسنى كانت من المعانى المطروحة فى الطريق يرددها الشعراء كثيراً . ولم تكن وقفاً على واحد دون آخر .

وإذا كان يصعب التمييز بينهم ـ من هذه الناحية ـ فإن من السهل أن نميز شاعراً عن آخر من ناحية الصياغة وكيفية التناول ، وهذا ما قد رأيناه فى تحليلنا السابق لبعض القصائد المنشودة فى هذا الباب .. حيث رأينا كل شاعر يلبس المعنى ثوبا جديداً . وهذا فى حد ذاته معترف به ومشهود له بالعبقرية ؛ فالشعر ـ كما قال الجاحظ ـ ضرب من التصوير . والحديث عن قضية اللفظ والمعنى حديث طويل تعددت فيه آراء النقاد ، ولست ـ هنا ـ فى مجال الحديث عن هذه القضية .

لقد دار كثير من الشعراء الذين ذكرناهم ـ آنفاً ـ حول معنى « التجاوز عن إساءة الأقارب أملا فى خيرهم » ، ولكن كان لكل شاعر طريقته فى تصوير هذا المعنى ، وكان لكل منهم أسلوبه المميز عن أسلوب الآخر . ومن هنا فإننا إذا اتهمنا معانيهم التقليدية فلا يمكن ـ بحال ـ اتهامهم بالسمة ذاتها من ناحية الأسلوب والتصوير .

يؤكد هذا أن الفرزدق تناول هذا المعنى فى شعره ، ولكنه أضاف إليه ، وعرضه فى ثوب جديد يوضح أن العز لا يتحقق للإنسان إلا بتعاونه مع ذوى قرباه ، حتى يرهبه الآخرون ، ويبتعد عن حماه الطامعون ، ولذلك فهو مطالب بمعاملتهم بالحسنى حتى يكثر البكاءون عليه من أقاربه بعد فراقه الدنيا . ولنستمع إليه . قال :

ومن يتخمطْ بالمظالم قــومــه ∴ ولو كرُمتْ فيهم ، وعزَّتْ مضاربهْ
يُخدَّشُ بأظفارِ العشيرة خدُّه ∴ وتجرح رُكوباً صفحتاه وغاربُه
وإن ابنَ عمِّ المرء عزُّ ابنِ عمِّــه ∴ متى ما يهج لا يَحلُّ للقوم جانبُهْ
وربَّ ابنِ عمٍّ حاضرِ الشر خيرُه ∴ مع النجمِ من حيث استقلت كواكبه
فلا ما نأى منه من الشر نازحٌ ∴ ولا ما دنا منه من الخير جالبُهْ
فما المرءُ منفوعاً بتجريبِ واعظٍ ∴ إذا لم تعظْهُ نفسُــه وتجاربُهْ
ولا خيرَ مالم ينفعِ الغصنَ أصلُهُ ∴ وإن مات لم تحزنْ عليه أقاربُهْ(١)

وواضح أن الفرزدق أخرج دعوته إلى المحبة والتكالف والعفو عن المسئ بين بنى الأعمام فى ثوب من الحكم البليغة المستمدة من تجاربه . ومن أروع هذه الحكم ما أوضحه فى البيت الأخير من أنه لا خير للمرء إذا لم يصل أقاربه طمعاً فى خيرهم وإحسانهم وتفجعهم عليه بعد أن يوارى جسده بالتراب. وواضح - أيضاً - أنه قد جعل من البحر الطويل قالباً موسيقياً لقصيدته كما صنع غيره من الشعراء الذين سبق ذكرهم .. الأمر الذى نستنتج منه : أن البحر الطويل هو البحر الغالب على الشعر العربى فى عصوره السالفة .

ويرى أحد الدارسين أن دعوة الفرزدق إلى المحبة والتكاتف والتجاوز عن الإساءة بين بنى العم دعوة محددة لاتثمر سوى اتساع دائرة التعصب وإيجاد الفجوات فى هيكل المجتمع الإسلامى المتوادد . وليت الفرزدق عمم الدعوة ، وجعليها لسائر المسلمين أو العرب - على أدنى تقدير - حيث الأخوة الإسلامية

---

(١) الديوان : ص ٤٦ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م ، ويتخمط : يتكبر . وأراد بصفحتيه : جانبيه ، أى إنهم يذللونه كما تذلل الدابة . والغارب : الكاهل أو مابين الظهر والعنق ، وهو أعلى كل شئ . والمراد فى البيت الرابع : أن شره حاضر باد وغير معدوم . والمعنى فى البيت الأخير : أنه فى لا خير فى امرئ إذا لم يصل أقاربه لينفعوه بعد موته .

والرباط الإيمانى من سائر الأجناس والطوائف ؛ ولكنه حصرها فى نطاق ضيق يدل على رؤيته المحددة لأبناء العمومة ؛ ،يدل على أنها دعوة إلى القبلية والأقليمية أقرب وألصق حيث الروابط المحددة بالنسب (١) .

وأضاف هذا الدارس : أن من يتأمل ديوان الفرزدق يجد هذا المفهوم لأبناء العم ، وما ينبغى أن يكون بينهم ، واضحاً فى كثير من المواطن (٢) .

وأنا - فى الحقيقة - أختلف مع هذا الدارس فيما ذهب إليه ، وأرى أن دعوة الفرزدق إلى التكاتف والمحبة بين أبناء العم دعوة مقبولة ؛ لأن التكاتف والمحبة أولى من التناحر والبغضاء ، ولأن ذلك مظهر من مظاهر الترابط بين أولى الأرحام . وفى القرآن الكريم إشارة لهذا المعنى فى ثقوله تعالى : « وألو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » .

ومهما يكن الأمر ؛ فإن الفرزدق لم يقف عند حد الدعوة إلى المحبة والتكاتف بين بنى الأعمام ؛ وإنما طبق هذه الدعوة على نفسه ، ،نقلها من مجال التنظير إلى حيز التطبيق حين قتل أحد أبناء مسلم بن جبير المجاشعى ابن عم له ، فأتى مسلم معاوية بن أبى سفيان ليحمل له دية ابن أخيه عن أبنه ، فأبى وكذلك أتى مروان بن الحكم فلم يستجيب له ، فكان مسلم كلما انتجعت حنظلة - وهى قبيلة تميمية اشتهرت بكثرة كرمها - علا نشزا فنادى : يا آل حنظلة ، ألا فتى يحمل لى دم ابن أخى ؟ يا آل مالك ألا فتى يعقل دية أبن أخى ؟ يا آل دارم ألا فتى يحمل دية ابن اخى ؟ يا آل مجاشع ..... وظل زمناً فلم يجبه أحد !!

فلما كان آخر ذلك نصحته عجوز أن يعوذ بقبر غالب والد الفرزدق ،

---

(١) شعر الفرزدق بين أصداء الجاهليةوصوت الإسلام للدكتور محمد كريم أحمد : ص ٦٩ ، ٧٠ ط مطبعة الأمانة القاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ .

(٢) السابق : ص ٧١ .

فلو كانت عشر ديات لتحملها ابنه الفرزدق إذا بلغه ذلك ، فاستجاب مسلم لنصيحتها وعلم الفرزدق ، فجعل يلبى ، ولا يلحق خارجا من البصرة إلى كاظمة إلا قال له : « قل لمسلم : زن دية ابن أخيك إلى فهلم » فأبلغوه ذلك فأقبل إل بالفرزدق ، فوفر له دية ابن أخيه ، وكانت مائة بعير (١).

ثم إن الفرزدق نظم فى ذلك قصيدة من خمسة وثلاثين بيتاً صور فيها ـ بأسلوبه المعروف بالقوة والمتانة ـ هذا الموقف الرائع الذى وقفه مع واحد من أبناء عشيرته . فقال (٢) :

إذا المرءُ لم يحقنْ دماً لابن عمه ... بمخلولةٍ من ماله أو بمقْحم
فليس بذى حقٍّ يهابُ لخفه ... ولا ذى حريم تتقيه لمحرمِ
فَخلِّ عن الحيّاتِ إن نهدتْ له ... ولا تدّعونْ يوماً به عند معظمِ
أَبَى حكمٌ من ماله أن يعيننا ... علَى حلِّ حبلِ الأبيضيِّ بدرهمِ
وقلتُ له : مولاكَ يدعو يقوده ... إليك بحبلٍ ثائرٍ غير منعمِ
بكى بين ظهرىْ رهطه بعدما دعا ... ذوى المخِّ من أحسابهم والمطعمِ
فقال لهم : راخوا خِناقى وأطلقوا ... وثاقى فإنِّى بين قتيلٍ ومغرمِ
ومن حوله رهطٌ أصابَ أخاهمُ ... بهارمةٍ تحت الفراشِ المحطمِ
بنو علَّة مستبسلون قد التوتْ ... قُواهم بثأرٍ فى المريرةِ مسلمِ
ولم يدعُ حتى ماله عند طارقٍ ... ولا سائرِ الأبناء من متلومِ
فقالوا : استغثْ بالقبرِ أو أسمعِ ابنه ... دعاءَك يرجع رنقَ فيك إلى الفمِ

(١) ينظر : الديوان ص ٥٢٧ ، مقدمة القصيدة » .

(٢) الديوان : ص ٥٢٧ . والمخلولة : المهزولة . والمقحم : الضعيف . والحيات : كناية عن الأعداء المساورين ذوى البطش . والمولى : ابن العم . والمخ : قلب العظام كناية عن ذوى الثراء والتقدم . والمطعم : راهب الطعام . والهارمة : المصيبة . والفراش : العظام الرقيقة . والحكم الأبيضى : كان أكثر بنى مجاشع مالا .

إلى أن يقول :

وكنتُ كمسئولٍ بأحداثِ قومهِ ∴ ليُصلحها ، من ليس فيها بمجرمِ
ولكن إذا ما المصلحون عصاهمُ ∴ ولىٌ ، فما للنصح من متقدّمِ (١)

والقصيدة - كما سبق التلميح - تصور موقف الفرزدق من هذه الحادثة وإقدامه على دفع الدية - نيابة عن ابن عمه - مع أنه لم يرتكب الجريمة ، ولا كان له يد فيها . وهذا بدون شك مثل رائع من التعاون مع ابن العم فى محنته . والقصيدة - كما ترى - من « بحر الطويل » ، فهى مثال آخر لغلبة هذا الوزن على الشعر المنشود فى دائرة ابن العم . وأسلوب القص والحكاية واضح تماما فى القصيدة ولا يحتاج منا إلى تفصيل وهو أسلوب يتسم بما اشتهر عن الفرزدق من تخير الألفاظ الجزلة ، والكلمات التى تحتاج إلى مراجعتها فى المعاجم اللغوية للوقوف على مدلولاتها .

وبعد : فإن القدر الذى ذكرناه من النماذج كاف للتدليل على أن صلة الرحم ، والتجاوز عن شرور الأهل ، ومعاملة ذوى القربى بالحسنى كانت من القيم الرفيعة التى تغنى بها الشعراء ، ولا سيما بعد أن دعا إليها الإسلام ، وأثنى على المتخلقين بها ، باعتبارها دعامة قوية من دعائم البناء السليم للمجتمع فى كل عصر .

(١) الديوان ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ . وبنو العلة : إشارة إلى تفرقهم لأنهم من أمهات متعددات ووادهم واحد . وستبسلون : جادون فى الشقاق والتباعد . وقوله : وكنت مسئول ... الخ : أراد أنه كأنه يحمل أعباء قومه ويدفع المال عن الجرم الذى لم يرتكبه .